

٦- عصر الطوائف

(القرن الحادى عشر الميلادى - الخامس الهجرى)

كانت قرطبة الأموية - ملتقى أجناس الشرق والغرب وموضع امتزاج بعضها ببعض - مركز توازن قلق^(١). وعندما انهار صرح خلافتها انتشر عقد بلادها وتفرقت أيدي سبا، وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب وأمرء الجماعات البربرية وفتيان صقالبة القصور وتقاسموها فيما بينهم إمارات، وزالت مع ذلك التفرق القوة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة، واختفى ما هو أخطر من ذلك وهو المثل الإسبانى الأعلى^(٢). وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسى وما تعاوره من أحداث، لرأينا أنه بينما عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر غربى ووفقوا فى ذلك، اجتهد ملوك الطوائف فى رد قرطبة الغربية إلى المشرق ثانية، فتحولت عواصم الأندلس إلى بغدادات صغيرة كثيرة. ولتُضَفَ إلى ذلك أن

(١) يشير المؤلف بذلك إلى تقلقل مركز الإمارة الأموية الأندلسية - والخلافة فيما بعد - تقلقلًا مستمرًا بسبب كثرة الفتن والثورات التى لم تدع للأمرء والخلفاء فترة من الراحة، وحكمه هنا صادق من الناحية التاريخية.

(٢) يريد المؤلف بذلك القواعد الرئيسية التى قامت عليها سياسة الأمويين فى الأندلس، وأولها المحافظة على وحدة البلاد وجمع شعوبها ونواحيها تحت راية واحدة، وثانيها حمايتها من كل اعتداء أجنبى، والاعتزاز باستقلالها، وثالثها المحافظة على الملكية كمذهب رسمى للدولة والشعب والزام الجميع بالآخذ به، ورابعها «التقليد الشامى» الذى ورثه المروانيون الأندلسيون عن أسلافهم فى الشام (وقد فصل غرسه غومس هذه النواحي فى المحاضرات التى ألقاها فى كلية الآداب بجامعة غزاد الأول بالقاهرة فى مارس وأبريل ١٩٥١م). وقد فرط الأندلسيون بعد سقوط الخلافة فى تلك المثل كلها، فعملوا على تفريق بلادهم، ولم يتورعوا عن الاستجداد بالأجانب والخضوع لسيادتهم، وأهملوا التقليد الشامى - حتى دعا بعضهم للعباسيين - وخرج على مذهب مالك من أراد الخروج منهم.

الظروف العامة كانت قد تغيرت تغيراً حاسماً حول الأندلس الإسلامي؛ فقد استيقظت إسبانيا النصرانية وتمدت يدها إلى أوربا؛ كان ذلك عصر «السيد القمبيطور»^(١). ثم إن أهل المغرب فيما يلي «الزُّقاق» نظَّموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة، وبين تَارَى النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده، فكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية. وسادت ذلك العصر كله روح من البذخ المسرف والإجرام السافر الذي لا يتورع عن شيء، من المطامع والنزوات إلى الخناجر والسموم. من هنا كان هذا الزمان عصرًا عظيمًا للشعر والشعراء، إذ تنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم، وصدق الشقندي حين قال في رسالته: «ولم تزل الشعراء تتهاذى بينهم تتهاذى النواصم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار».

وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه: فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبزَّ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً يلقي منهم كل رعاية ولكن عناية بنى عبَّاد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل. وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر، وكان البربر أصحاب السلطان في جنوبى الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود. وقلَّ وفود أعلام المشاركة على

(١) إطلاق تسمية «عصر السيد» على النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى الأندلس (وهو عصر الطوائف) اصطلاح حديث ابتدعه اللغوى المؤرخ الإشبانى المعاصر مننذ بيدال، وسمى به كتابه الذى ألفه فى تاريخ السيد القمبيطور: La Espana del Cid. ويعد اتصال إسبانيا النصرانية بغرب أوربا وانفتاح الباب بينهما فى ذلك العصر من أكبر أسباب نهضة إسبانيا النصرانية وتغلبها على المسلمين، وإلى هذا يشير المؤلف هنا.

الأندلس، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تصنيف مجموعات من جيد الكلام ما بين نظم ونثر، كالذى فعله أبو الوليد الحميرى (توفى حوالى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، من تأليف كتابه «البديع فى وصف الربيع»، ومضى الناس فى نظم الموشحات، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات؛ لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء! حتى قال القزوينى إن «أى فلاح يحترث بأثوار فى شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى». ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً، يتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلوات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتُدْرَج أسماؤهم فى سجلات الدواوين، وتقرر لهم الأرزاق وتُخلع عليهم وظائف التدريس؛ ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة. ولما اشتد عليهم الطلب وتوالى عليهم إلحاح الأمراء رفعوا أسعار أشعارهم، حتى حلف واحد منهم ألا يمدح أميراً بأقل من مائة دينار، وأدرك اليأس نفراً منهم، فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أريافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال. وكان كبار القوم من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء لا يتراسلون إلا شعراً، فكانوا يتهادون رقاعاً صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجى، أو يرفقونها بهداياهم، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم، كلها منظومة شعراً يشبهون أنفسهم فيه بالنجوم والزهور، حتى أصبحت حياتهم كلها شعراً صرفاً! ومعظم هذا الشعر متكلف زائف، ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصوّر أخلد العواطف الإنسانية.

وإذا كان لا بد من تصوير المحنة العامة التى شملت الشعر خلال ذلك العصر فى صورة شخص واحد من أهله، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦١-٤٨٤هـ/ ١٠٦٨ - ١٠٩١م). كان أبوه المعتضد (٤٣٤ - ٤٦٢هـ / ١٠٤٢ - ١٠٦٩م) - صاحب الأفاعيل الشنيعة - وأبناؤه جميعاً، وخاصة «الراضى» الرقيق صاحب رندة، كلهم شعراء. ولكنه برّهم جميعاً وفاق كل معاصريه فى ذلك المضمار، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه: أولها أنه

كان ينظم شعراً يثير الإعجاب، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعراً حياً، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله؛ فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها، وتهدّدوا الباقي. إن حياة المعتمد لعجبية حقاً! كان في صدر شبابه - أيام كان بعدُ أميراً - عاملاً لأبيه في شلب، وحاكماً على إقليم الجوف البرتغالي كله؛ وهناك طابت له الأيام في صحبة صديقه الحميم أبي بكر بن عمّار قسيم حياته. وعندما اعتلى عرش أبيه تلالأت الأنوار في صفحة الوادي الكبير، وفاضت بالموسيقى جوانبُ قصوره البيضاء القائمة في ألفاف ريتون «الشرف». ثم تزوج من جارية استطاعت أن تُجيز شطراً بيت ارتجله وكان قد سأل صاحبه ابن عمّار أن يجيزه فأرنج عليه، فأجازته هي على البديهة وهي تغسل في النهر على مقربة من «فحص الفضة». وعندما جمحت بها إحدى نزواتها، فتمنّت لو عجنت الطين برجليها، نثر لها الكافور والعنبر على الحصاء وصنع لها منهما طيناً؛ وأقام «الباري الأشهب» رئيساً لحرسه، وكان قبل ذلك قاطع طريق بهر المعتمد بذكائه. ولقد افتتح المعتمد المدائن، ومات نفر من أبنائه بين سمعه وبصره أثناء حروبه، وقتل بيديه أقرب أصحابه إلى نفسه، عقاباً له على خيائته إياه. وعندما ثقلت عليه وطأة ألفونسو السادس، أسرع يستنجد بيوسف المرابطى وخاض معه «وقعة الزلاقة» وخرج منها مظفراً (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م). ولكن يوسف لم يلبث أن خان، وانهزم المعتمد الملك الشاعر، «داود» الجديد، أمام «جالوت» الإفريقي. ونفى المعتمد في كُبوْلِه إلى «أغمات» - عند سفح جبال الأطلس - وهناك ظل يندب حظه، حتى وافاه أجله في دورٍ اتخذت له من الطين تحت أغصان النخيل. وفي ظلال هذا الحزن الممض، جعل يسترجع صور قصوره الإشيلية، وما كان يزينها من شجر الزيتون؛ وترجم بشعره كل لحظة من حياته السالفة.

وعاصر المعتمد ابنُ زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣هـ / ١٠٠٣ - ١٠٧٠م)، وإن كان أَسَنَ منه بكثير؛ وهو أعظم شاعر قديم مُحدَث أنجبه الأندلس. عاش ابن زيدون أول الأمر في قرطبة في كنف حكومة جمهورها، وكانت قرطبة مولده،

وبكى بشعره على أطلالها وخرائب مواضع أنسها التي عشت بها يد الزمان، ثم انتجع بعد ذلك إشيلية وعاش في رعاية بنى عبّاد. وكان ابن زيدون قبل كل شيء شاعر الحب، ومحبوبته هي «ولادة»، وكانت أميرة من صلب ملوك، ولكنها كانت امرأة رَجُلَة بالغة الظرف والاناقة، هجرته آخر الأمر فمضى يشكو آلام الهجران ومرارة انصرافها عنه في شعر لا زال العرب يجدون في ترديده متاعاً حقيقياً، وخاصة «نونيته» المشهورة، وذوقها قريب جداً من الذوق الغربي، وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التي نعرفها في الشعر العربي، وهي تضم - هنا وهناك - أبياتاً ناصعة، كأنها المرمز الأبيض القديم؛ وهو القائل:

إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسْمِينَ بِكَفِّهِ أَخَذْتُ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ

وله أبيات أخرى تمتاز فيها الأضواء الباهرة بالظلال السوداء القائمة كقوله:

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَفَسَدَتْ سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا

وهكذا يختلط الأبيض والأسود أحدهما بالآخر في هذا الشعر، كما اختلطا في رقعة الشطرنج التي لعب ابن زيدون عليها دور حبه الخاسر.

ومن كبار شعراء ذلك العصر أبو بكر بن عمّار الشُّلْبِي (توفي ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) صديق ابن عبّاد، وكان شخصية قوية تفيض فتنة، وحياته سلسلة من المغامرات المحزنة. كان ابن عمّار طموحاً لا يخلو من مسّ جنون، شاعراً يفهم الجمال الفني على أنه لفظ مونتق متكلف زخرفي، خلا أبيات تشذ عن ذلك الوصف قالها هاجياً مقذعاً، وقصائد أخرى تتم عن عاطفة مشبوبة صادقة.

أما أبو بكر بن اللّهانة الداني (توفي ٥٠٧هـ / ١١١٣م). فكان روحاً عذبة رقيقة، وكان كثير البكاء، اشتهر بإخلاصه للمعتمد بعد نكبته.

وكان أبو عبد الله محمد بن الحدّاد (توفي ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) وزيراً في المريّة، وقد تواترت على الألسن قصائد نسييه في صبية نصرانية «ذهبت بلبه كل

مذهب وركب إليها أصعب مركب، فصرف نحوها وجه رضاه، وحكمها في رأيه وهواه»، وكان يسميها «نورية» كناية عن اسمها - كما يقول ابن بسام^(١)، ومن ملحه فيها قوله:

رَأَيْتُ جُنُونِي مِنْ نُورِةٍ كَاسِمِهَا نَارًا تُضِلُّ، وَكُلُّ نَارٍ تُرْشِدُ
وَالْمَاءُ أَنْتِ، وَمَا يَصِحُّ لِقَابِضٍ وَالنَّارُ أَنْتِ، وَفِي الْحَسَا تَتَوَقَّدُ

وكان أبو إسحاق الإليري (توفي ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م) فقيهاً عنيقاً متشدداً ذا شخصية إسبرطية، دفع أهل غرناطة إلى القيام على اليهود وقتلهم «بنونته» المشهورة.

أما أبو القاسم خلف بن فرج الإليري المعروف «بالسميسر»، فقد امتاز بالسخر اللاذع من بين معاصريه من الشعراء. وكان بنو القبطورنه - أبو محمد طلحة، وأبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن علي - ينشدون بشعرهم العذب الحائناً أسترأما دورية^(٢) خالصة، تردد في أبياتهم نفحات من الأبيقورية الحزينة.

ومن نابهي شعراء العصر كذلك أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى (توفي ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م)، وكان شاعر بلاط مصقولاً لبقاً متحرراً من الأوضاع، «وكلهم كلفاً بالغلمان، مكسفاً بين الخوف والأمان، فإن الانفراد بهم كان عليه محجوراً، وكان من أجلهم محمقوتاً ومهجوراً، فإنه اشتهر في حبههم أشد اشتهار، واستظهر على كلفه بهم بالشظف والاقتتار»^(٣)؛ وابن صاره الشتريني (توفي ٥١٧هـ / ١١٢٣م)، صاحب التشبيهات والاستعارات البعيدة المطارح،

(١) ابن بسام: «الذخيرة»، قسم ١، ج ١، ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) نسبة إلى إقليم Estramadura في الأندلس، وهو المنطقة الواقعة بين الوادي الكبير من أحوار إشبيلية إلى ماردة وبطليوس، وكانت تسمى أيام المسلمين بالشرف أو شرف إشبيلية. وهو إقليم شديد الجفاف، ومن هنا اسمه Extrema-dura وهو مشهور في إسبانيا بجوه القاتم الحزين، ومن هنا كانت أنغام موسيقاه الخاصة الحزينة، وإلى هذا يشير المؤلف هنا.

(٣) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٢٨٠.

الذى «أعان على نفسه الزمان، واستجلب لها الخمول والحرمان»، وهو القائل
فى حرفة الأدب:

أَمَّا الْوِرَاقَةُ فَهِيَ أَنْكَدُ حَرْفَةٍ أَغْصَانُهَا وَثِمَارُهَا الْحَرَمَانُ
شَبَّهْتُ صَاحِبَهَا كَابِرَةَ خَائِطٍ تَكْسُو الْعُرَاةَ وَجِسْمُهَا عُرْيَانُ^(١)

ومضى يتعزى عن الخمول والحرمان بوصف النار والكوانين، وله فيها شعر
كثير جيد كقوله:

لَابِنَةُ الزَّيْنِدِ فِي الْكُوَانِينَ جَمْرٌ كَالدَّرَارَى فِي دُجَى الظُّلُمَاءِ
خَبَّرُونِي عَنْهَا وَلَا تَكْذِبُونِي أَلَدَيْهَا صِنَاعَةُ الْكِيمَاءِ؟
سَبَكْتُ فَحَمَهَا صَفَائِحُ نَبْرٍ رَصَعْتُهَا بِالْفِضَّةِ الْبِيضَاءِ
كَلِمًا رَفَرَفَ النَّسِيمُ عَلَيْهَا رَقَصَتْ فِي غُلَالَةِ حَمْرَاءِ
لَوْ تَرَانَا مِنْ حَوْلِهَا قُلْتُ شَرِبٌ يَتَعَاطُونَ أَكْوَسَ الصَّهْبَاءِ
سَفَرْتُ فِي عَشَائِهَا فَأَرْتِنَا حَاجِبَ الشَّمْسِ طَالِعًا بِالْعِشَاءِ^(٢)

ومنهم - كذلك - أبو عبد الله محمد بن شرف البرجى (توفى فى عام
٤٦٠هـ/١٠٦٨م) ذو النزعة الفلسفية.

ومن ذا الذى يستطيع إحصاء مئات الشعراء الآخرين الذين يندرجون فى
طبقات تلى طبقات من ذكرنا؟ بحسبنا أن نشير هنا إلى أسماء بعضهم، وهم:
عبادة بن ماء السماء، وأبو الحسن على بن حصن، ومحمد بن عبد الملك بن
القوطية، وأبو الوليد حسان بن المصيصى، وابن الملح^(٣)، وابن جاج الصباغ
الإشبلى، وأبو عبد الرحمن بن البين، وأبو زيد عبد الرحمن بن مَقَانَا،

(١) الفتح بن خاقان: «قلائد المقيان»، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٠٦. وقد أورد بعض هذه الأبيات ابن سعيد فى «الربايات» ص ٣٦، مع
خلاف بسيط فى الألفاظ.

(٣) هناك أخوان شاعران يحملان هذه التسمية، هما أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح، وأبو بكر
محمد بن محمد بن الملح.

وأبو الحسن القرشي الأشبوني، والأسعد بن إبراهيم بن بليطة، وعبد العزيز بن خيرة المعروف «بالمقتل»، والحجّام، ويحيى الجزار، وأبو جعفر بن البتي، وأبو الوليد النخلى، وإدريس بن اليمان، وغيرهم كثيرون جداً.

وإن الأذن لتسمع في هذا الحشد الحافل من المنشدين كل لون من الأصوات: أصوات الفقهاء العنيفة التي تستثير في النفس نيران العصبية الدينية، وأصوات السخر اللاذع الملتوى المسموم يتردد فيها الكلام المهذب المصقول الرقيق، ودعوات الإخوان إلى انتهاب المسرات وقد غفلت صروف الزمان، والخمريات، والزهريات والنساء، والأعياد، والمدائح الزائفة الخاوية، ونداءات القتال، والتحسر على استحالة منازل عوادي الأيام، ومدائح، ونفثات مهذبة، وغزليات، ومراث. وإن بعض شعراء هذا العصر ليتحدثون، وكأنهم ينمون في قريضهم عن بيرونية جاءت قبل أوانها، وتبدر منهم بدوات دُونْخَوَانِيَّة^(١) مريرة لا توقر شيئاً.

إن ذلك القرن الحادي عشر الأندلسي لعالم عجيب مندفح الحركة: عصر كانت الغاسلات فيه يتقلن من صفة النهر إلى العروش، وكان الملوك فيه يُنزَعون عن عروشهم ويُسلَّمون إلى أبواب المنية، أو يُلقَى بهم في ظلمات المنفى! إن شارته الغالبة عليه هي الانهيار. ولقد عبّر عن ذلك أصدق تعبير: المعتصم بن صمادح - أمير المرية (٤٤٣ - ٤٨٤هـ / ١٠٥١ - ١٠٩١م) الذي يبدو لنا وكأنه صورة المعتمد الباهتة - فقد رقد في سريره يحتضره واقتحم المرابطون قصره، واقتربوا من حجرته يريدون أن يتعجلوا موته، فقال: «نُغْصَ علينا كل شيء... حتى الموت».



(١) نسبة إلى «دون خوان Don Juan» بطل الأناضيص الغرامية المعروف، وهو إسباني كما ينم عنه اسمه.